الفصل السادس والعشرون

# حكاية الأعشاب الضارَّة

أدّى اغتيال كونراد إلىٰ بث البلبلة والفوضى من جديد. ولم يستفِد صلاح الدِّين ألبتة من مقتله إذ كان كونراد بمثابة الإسفين الذي يدسّ به التفرقة في صفوف الصليبيين. في كل مرّة كان كونراد يرسل مبعوثاً لمحاولة عقد اتفاق سلام منفصل، كان الخبر يصل إلىٰ مسامع ريتشارد من جواسيسه فيرسل مبعوثه الخاص حاملاً عرضاً خيراً من عرض كونراد. ولذلك فقد صلاح الدِّين دريئته وأحدمثيري المشاكل داخل الصفوف اللاتينية. ظهر سفير كونراد في معسكر صلاح قبل عملية الاغتيال بأربعة أيام. ووجد صلاح الدِّين مجالاً للمناورة طالما ظلت صور مستقلةً عن الحملة الصليبية باعتبارها قاعدةً أماميةً للمستائين من تدخل الإنكليز.

وبالطبع لم يعُد مقتل كونراد بالفائدة على ريتشارد. فقد عطّل خطته في الرحيل الوشيك. فعندما وافق على تتويج كونراد ملكاً أنجز العمل السياسي الأخير الهادف إلىٰ تسوية أمور أسرته. وها قد عادت الفوضى لتسود من جديد داخل أسرته وشك الفرنسيون في أن يكون المحرّض على هذا الاغتيال. واضطر بسبب هذه الفوضى أن يؤجل موعد رحيله. وهكذا فكّر الملك والخوف يساوره في جولةٍ أخرى من المناورات السياسية.

تقدّم هنري أوف شامباني بوضوح إلىٰ الواجهة. لقد بات الخيار المنطقي الآن على الرغم من صغر سنّه بسبب صلة القرابة التي كانت تربطه بالسلالتين الفرنسية والإنكليزية. حتى أنه كتبت له أغنية شعبية تقول كلماتها: «برضى الرب الرحوم، وحده الكونت أوف شامباني أشعل نار الأمل من جديد، ابن أورشليم البار تماماً كهرقل، ويقاتل وسيفه في يده، والإيمان في قلبه». كان المسلمون يجدون فيه خصال الرجل العقلاني، القادر، والمتسامح. أما الفرنجة فقد تبيَّن لهم أنه مقاتل قدير. قام بزيارة لشيخ الجبل في الوقت المناسب، وشهد رجلين من الفدائيين يلقون بأنفسهم إلىٰ التهلكة كي يثبتوا للمسيح على الأرض ولاءهم وإخلاصهم.

من أجل تعزيز ارتقائه على العرش، أُجْبر هنري نزولاً عند إصرار ريتشارد، على الزواج من إيزابيلا أرملة كونراد مع أنها كانت حاملاً بابن الكونت الراحل. سبَّب عرض الزواج هذا تبادلاً لكلمات قاسية بين هنري وعمه. فقد اعترض هنري عليه بقوله: «إن ولدت إيزابيلا وليداً ذكراً، فإنّه سيرث العرش. وعندها سأجد نفسي مرتبطاً بهذه المرأة ولا أعود أبداً إلىٰ شامباني».

وأجابه ريتشارد: «ما سأعطيك يفوق كل ما يمكنك الحصول عليه إن عدت إلىٰ شامباني. أعدك أنني، في حال أذِن الله بعودتي إلىٰ إنكلترا، سأرجع إليك على رأس قوة مسلَّحة عظيمة إلىٰ حد أنَّها ستخوّلني احتلال المملكة بأسرها من أجلك بالإضافة إلىٰ العديد من أراضي الوثنيين. وأتوقع أن تصل قوتي، عند عودتي، إلىٰ حد يجعني احتل إمبراطورية القسطنطينية. وسأهبك جزيرة قبرص أيضاً بما أن الملك غي لم يدفع لي ثمنها بأكمله».

على الرغم من هذا الكلام المعسول، فإن هنري لم يجد مناصاً من قبول العرض. وبعد أربعة أيام من دفن كونراد في مستشفى صور، تزوّج هنري أرملته واستلم زمام السلطة في مدينته. سبَّب هذا الزواج غير المقدس اشمئزاز

المسلمين[1]. فكتب أحد المؤرخين المسلمين: «إنّها حامل ولكن وضعها لم يمنع هنري من الزواج بها، وفي ذلك ما يثير الاشمئزاز أكثر بعد من الجِماع. سألت أحد رجال حاشيتهم إلىٰ من سيُنسب المولود فقال لي: سيكون طفل الملكة! أرأيتم درجة فسق هؤلاء الكفّار القذرين!».

بعد مرور أسابيع وشهور على عملية الاغتيال، استمرّت الشائعات تدور حول مسألة هوية مرتكب الجريمة الحقيقي. فقد اعتُبر حشاشو شيخ الجبل الأدوات التي ارتكبت الجريمة لحساب قوةٍ أكبر. ووجّه الاتهام خفيةً لكل من ريتشارد وصلاح الدِّين علماً أنّ اتهام الفرنسيين لم يكن في السرّ بل على الملأ ومن أعالي الأبراج. وفي نهاية المطاف، بلغ خبر الاغتيال أوروبا وفرنسا. وكما يحدث عادةً بالشائعات، زوّقت قصة الاغتيال فبلغت مبلغ التهديد المبالغ فيه عند وصولها لمسامع الملك فيليب. فلم يكتفِ ريتشارد باستخدام الحشاشين لقتل كونراد، بل ينوي لفيليب النية ذاتها!

على الفور، عزّز فيليب حرسه الخاص وابتعد عن كل شخص لا يعرفه في فونتينبلو Fontainebleau.

استعان المؤرخ الإنكليزي في وصف هذا الوضع المَثَل الرمزي المذكور في إنجيل متى. في هذا المثال، يذرّ الرجل الطيب بذوره الجيدة ولكنّ عدوّه يزحف إليه خلال استغراقه في النوم وينشر بذور الأعشاب الضارة بين البذور الجيدة. تقول كلمة الرب: ولكنّ المزارعين تركوا الأعشاب الضارة تنبت جنباً إلىٰ جنب المحصول حتى حان موعد الحصاد فحشّ الحاصدون الأعشاب الضارّة كومات كومات وأضرموا فيها النار، وحصدوا بعد ذلك القمح على حدة.

---

(1) في الكامل لابن الأثير 12/ 79: «فلما قُتل المركيس وليَ بعده مدينة صور كَند (كونت) من الفرنج، من داخل البحر، يقال له الكَندهري (الكونت هنري)، وتزوج بالملكة من ليلته ودخل بها وهي حامل، وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح».

لقد استُخدم هذا المَثَلُ رمزاً ضدّ فيليب. فهو من زرع بذور الأعشاب المضرّة في حقل القمح النظيف والمقدس الذي أعدّه ريتشارد وها قد بدأت هذه الأعشاب تعطّل نمو حبوب القمح. ولكن حين يحين موعد الحصاد ستُقطَعُ كل هذه الأعشاب الضارة وتُضرم فيها النار. وسيتم تخليص ثمار مملكة الله رغم أنف أعدائه.

# II

## التماس قسيس

بحلول شهر أيار/ مايو، عاد موسم القتال من جديد وترقّب الفريقان كيفية استغلال العدو للمناخ الجاف والحار. كان ريتشارد عرضة لتجاذب مضاد. فطبيعته الحربية كانت تحثّه على شنّ هجوم ولكنه كان يتمتع بدهاء سياسي كاف كي يأمل بأن يعطي عرضه الدبلوماسي الأخير الذي قدّمه لصلاح الدِّين نتائج مثمرة. توالى وفود الرسل حاملين أنباء متناقضة من أوروبا. فبعضهم كان يصف الوضع في البلاد وصفاً كئيباً، فيما نقل آخرون أخباراً عن التمكّن من خنق الثورات. البعض أصرّوا على ضرورة عودة ريتشارد إلىٰ البلاد على الفور فيما توسّل إليه آخرون أن يُتِمَّ حجّه. وبين الحضّ على القتال والتشاور، وجد نفسه يعد العدة للتخلي عن الحملة الصليبية يوماً وللبقاء في مكانه في اليوم التالي.

كان يغضّ النظر يوماً عن مكائد الملك فيليب، وينشغل في اليوم التالي في تدبُّر معاني المثل القائل: «إنّ الذي عنده جارٌ سيء، سيجد عند الصباح ولا شك ما يسوء».

لم يكن صلاح الدِّين في هذا الوضع المضطرب. فضّل استخدام لعبة الانتظار مراقباً عواقب عملية الاغتيال ـ لم يكن هنري أوف شامباني ذا شعبية كبيرة في مختلف قطاعات جيش الصليبيين ـ كما كان ينتظر حصول تطورات

جديدة على الجبهة الدبلوماسية. ومع أنّ الاضطراب كان مسيطراً على الوضع الحالي والقصير المدى، إلاّ أنه كان يعلم علم اليقين أنه في بلاده وبين رعيته. فمرور الوقت من صالحه وليس من صالح ريتشارد. أقام الملك العادل شقيق صلاح الدِّين ومبعوثه الدبلوماسي اتصالات جديدة مع ريتشارد حين كان في طريقه إلىٰ القدس، في مطلع فصل الربيع قبيل مقتل كونراد. أرسل ريتشارد رسالةً إلىٰ السلطان يقول له فيها بكل تفاؤل: «نوافق على تقسيم البلاد. ولْيَحتفظ كل جانب بما لديه الآن وإن كان لجهة أكثر من النصف، فما هو نصيبها العادل؟ يجب أن تعطي الجانب الآخر تنازلاً مناسباً. ستكون لنا المدينة المقدَّسة، وتحتفظون لكم بالسهل الساحلي».

وجد قادة صلاح الدِّين في جوهر هذه الرسالة عرضاً مرضياً. وزاد فرحهم عندما عاد الملك العادل إلىٰ فسطاط صلاح الدِّين بعد أسبوعين بأخبار عن تنازلات وتحسينات إضافية قدّمها الصليبيّون. لقد بات ريتشارد مستعداً لتسليم قلعة القدس إلىٰ المسلمين علاوةً على قبة الصخرة ذاتها والمسجد الأقصى فيما يقسم ما تبقى من المدينة المقدَّسة إلىٰ نصفين بالتساوي. وتخصص البلدات الواقعة في محيط القدس بين الجانبين بالتساوي.

صحيح أنّ هذه التطورات كانت مشجعة إلاّ أنّ صلاح الدِّين استلم رسالةً من الجنوب قضت على تفاؤله. فمنها علم أنّ الصليبيين قد تجرأوا على الخروج من عسقلان ووصلوا إلىٰ ضواحي الداروم وهي القلعة الساحلية الأبعد جنوباً. وقد قصد صلاح الدِّين الإبقاء عليها وعدم تهديمها؛ إذ كان يعتبرها المستودع الأخير للمؤونة في السهل الساحلي الجنوبي، وموقعاً يمكن التراجُعُ إليه في حال استولى العدو على القدس. اعتُدي على معسكر مسلم خارج المدينة وقُتِل عدة مؤمنين وسطا الغزاة على ألف خروف. انزعج صلاح الدِّين من هذه الأخبار وسارع إلىٰ إرسال كتيبة من قوات الطلائع للبحث عن النهّابين ومعاقبتهم. عملية الاستفزاز هذه بيّنت أنّ ريتشارد لا يفكّر بالتخلي عن المعركة حتى الآن.

أقضّت الثورات الداخلية في أوروبا مضجع ريتشارد، والأمر سيّان لصلاح الدِّين الذي كان يواجه مشاكل خاصة به. إذ كان حفيد أخيه المدعو الملك المنصور أميراً شاباً شديد الطموح يطالب بالاستقلال بشمال سورية وبالسيطرة على عدة مدن هامّة، بما فيها الرها، وأراضي تقع ما وراء نهر الفرات. شحب لون صلاح الدِّين حيال تصرّف هذا الشاب الوقح، ولا سيّما أنّ توقيته كان سيئاً جداً، ومال إلىٰ تلقين هذا الغلام المراهق درساً قاسياً. ولكنّ قادة جيشه أعادوا السلطان إلىٰ صوابه في اجتماع عصيب.

تقدّم أحدهم بالقول: «نحن خدم جلالتك وعبيدك ولكن الشباب سيتّحدون ويتحالفون وخاصة إن أحسوا بالخوف. ومن المستحيل علينا أن ندخل حربين في آن واحد ضد المسلمين من جهة وضدّ الكفار من جهة أخرى. إن رغب السلطان في دخول حرب ضد المسلمين، يجب أن يسمح لنا بعقد اتفاق سلام مع الكفّار. عندئذ، سنعبر بكل سرور نهر الفرات ونحارب تحت قيادته. ولكن إن رغبتَ في متابعة الجهاد، فينبغي أن تسامح الأمير الشاب وتُعطيه الأمان». وافق القادة الآخرون على هذه المشورة الصائبة فرقّ قلب صلاح الدِّين. عيَّن شقيقه نائباً عنه في التوصل إلىٰ تسوية مع حفيد شقيقه واهتم مجدداً بالمسألة الأهم التي يواجهها. وقرّر أن يعالج مسألة هذا الصبي المتهوّر لاحقاً.

في هذه الأثناء تقريباً، تلقّى السلطان زيارةً مثيرةً للاهتمام من القسطنطينية. فقد جاءه مبعوث نبيل من طرف إمبراطور بيزنطة حاملاً هدايا وعروضاً هامّة. ومن أكثر هذه العروض إغراءً اقتراح باستعادة الصليب الحقيقي الذي غنمه مقابل مئتي ألف قطعة ذهبية. مبلغ هائل من المال يستطيع السلطان أن يستفيد به في المجهود الحربي. والأكثر من ذلك، التماس المبعوث من صلاح الدِّين أن يهب للطائفة الأرثوذكسية الشرقية البقعة التي يقع فيها الضريح المقدس. وانطوى هذا العرض الأخير أيضاً على إغراءات خاصة به؛ فبذلك

تُنزع أقدس كنيسة عند المسيحيين من ممتلكات روما. وأخيراً، طلب المبعوث مساعدة صلاح الدِّين في الإعداد لغزوة ضد قبرص لانتزاعها من سيطرة الصليبيين، وإعادة تنشيط العلاقات التجارية والتاريخية مع بيزنطة. تضمّنت هذه الاقتراحات الثلاثة ما يحضّ على تزكيتها، إلاَّ أنّ صلاح الدِّين رفضها. وفيما عاد المبعوث أدراجه خائباً، زاد تقدير صلاح الدِّين للضمانة التي كان الصليب الأعظم يوفّرها له.

طالما لم يتمكّن ريتشارد من اتخاذ قرار بالبقاء أَو الرحيل، لم يكن قادراً على المكوث دون حراك. لقد حلّ منتصف شهر أيار/ مايو والوقت يمرّ دون فائدة. أثبتت غزوة الداروم في الشهر المنصرم درجة الأهمية التي تتبوأها هذه المدينة ومحصول غلالها وهشاشتها. ولا شك في أنّ احتلال هذه القاعدة الأمامية الجنوبية الآن، فيما يتم التفاوض مع صلاح الدِّين، يعزّز إمكانية توصّل ريتشارد إلىٰ تسوية.

ومرةً أخرى، رفض الفرنسيون الانضمام إليه في هذه المغامرة الأخيرة. عدد كبير منهم كان لا يزال يحيي احتفالات تملُّك هنري أوف شامباني في عكّا. فقرّر ريتشارد أن يهجم على الداروم بقواته وحدها. وفي حين حمّلت معدّات الحصار على متن البواخر، حرّك ريتشارد قوّاته على رقعة الشطرنج. لم يكن بمقدوره أخذ قوة كبيرة إلىٰ مكان يبعد هذا القدر عن مركز الجيوش. فعليه تأمين حماية عسقلان وما تبقى من الأراضي التي احتلها. ولذلك انطلق على رأس كتيبة من فرقه العادية وأكثرهم رجال من النورماندي وبواتو.

يعتبر موقع الداروم فيما وراء غزة استراتيجياً؛ ولذلك لم يكن احتلاله سهلاً ولا ملائماً. احتوت البلدة على سبعة عشر برجاً على سور شاهق العلو، وخندق مائي، وقائد حازم يُعرف باسم علم الدين قيصر. كانت قلعةً مسلمةً متينة البناء، وفيرة التموين، ومحمية حماية جيدة. في السابع عشر من أيار/ مايو، وصل الملك إلى هذا المعقل المهيب، وترجّل عن صهوة حصانه،

وعمل جنباً إلىٰ جنب مع رجاله في حمل عوارض معدّات الحصار وقضبانها ودعاماتها الثقيلة الوزن على ظهورهم مسافة ميل يفصل بين الساحل وأسوار المدينة.

رأى المسلمون ريتشارد يقود قوة قليلة العدد. في البداية، حملتهم جسارتهم على تسديد الضربات. ولكن صيت هذا المقاتل العظيم سبقه. فبمجرّد النظر إلىٰ هذه الراية الملكية بأسودها النحيلة الثلاثة على الأرضية الحمراء ظهرت روح من القوة التي لا تقهر. كمثل قميص مُخَضَّب بالدماء. مجرّد النظر إليه كان كافياً لزعزعة ثقة العدو بنفسه.

بدت مهارة ريتشارد كمخطّط جلية على الفور. فبعد تركيز معدات الحصار، والقوة المتراصة أمام البرج الرئيسي، أصدر الملك أمره بضرب الشرفات المشعّثة بالصخور الجلمودية دون تهاون، فيما باشر اللغّامون في تقويض الأساسات. استمر القصف ثلاثة أيام وانتهى بانهيار البوابة الرئيسية واشتعال النار فيها. وعندما وجد القادة العرب أنفسهم محاصَرين دونما أملٍ بمدد، ظهروا حاملين راية بيضاء معلنين عن استسلامهم مقابل حياتهم وحياة أُسَرهم وممتلكاتهم. ورفض ريتشارد؛ وأعلمهم بأنّه يفترض أن يتمّ الاستسلام قبل سفك الدماء وليس عند حصول هزيمة نكراء. في غضون ساعات، انهار البرج الرئيسي وتحوّل إلىٰ ركام ورُفِعت رايات مختلف كتائب الصليبيين ـ ستيفن أوف لونشان وإيرل ليستر ثم أهالي بيزا وجنوى ـ على الأسوار. وقبل أن يسيطر اليأس على المدافعين عن المدينة ويختبئوا داخل منازلهم بانتظار المحتوم، حرموا الغزاة من حيواناتهم من خلال قطع أوتار قوائم خيولهم.

بعد مرور يوم على سقوط الداروم، وصلت كتيبة فرنسية تضم هنري أوف شامباني في الوقت المناسب للمشاركة في احتفالات النصر. لم يعد ريتشارد يظهر أي تنافسية منذ رحيل فيليب. ولا بد أن يسجّل التاريخ انتصاره في الداروم دون مساعدة الفرنسيين. لقد بات المجد مضموناً له. شعر أنه قادر

على العطاء. لقد حان موعد عيد العنصرة العظيم الذي يلي عيد الفصح بسبعة آحاد، ولا بدّ من وجود دعابات متداولة تحكي قصة وصول هنري بعد الأزمة بوقت طويل، كأنه الروح القدس يهبط على الرسل. وفيما عرض ثلاثمائة أسير مسلم مكبلي الأيدي أمام ريتشارد، قدّم هذا الأخير هديته الجديدة لابن شقيقته. امتطى ريتشارد وزملاؤه خيولهم، واتجهوا نحو الشمال فتخطوا حصن التين الذي أخلاه، على جناح السرعة، ألف مسلم خلال اليوم السابق، كما تخطوا كذلك قصراً آخر أُخلي يسمَّى مجدل بايا نحو قرار محتوم.

وفيما تحرّك الموكب نحو الشمال عبر سهول يبنى مجتازاً بالخليل مكان ولادة حنّة والدة مريم العذراء، تلاشت مشاعر الفرح بما أحرز من نصر في الداروم مع الغبار المتصاعد من وقع حوافرهم. فعند وصول ريتشارد إلىٰ مجدل بايا، تلقى موجةً أخرى من الأخبار السيئة القادمة من إنكلترا وعلت وجهه الآن أمارات الكآبة. وانطبع في ذهن بارونات بأنّ الملك يمضي أيامه الأخيرة في الأراضي المقدَّسة.

في هذه الأثناء، عقد الفرسان اجتماعاً مستقلاً فيما كان قائدهم بعيداً مشغول البال. لم يكن الصليبيّون متحدين في يوم من الأيام إلىٰ هذا الحد. فقد ساد حسن النيّة والرضى في نفوس الجميع. شعر الفرنسيون فجأةً بحس التكافل والتضامن مع الإنكليز كما حدث ذلك بين النورمانديين ورجال بواتو، وبين رجال بيزا وجنوى. وحاز قرارهم على الإجماع. سواء قرّر الملك ريتشارد البقاء أو الرحيل، لا بد أن تستمرّ الحملة الصليبية. وكانوا مصممين على الزحف نحو جيروسالم.

شعر الجنود بسعادةٍ غامرةٍ عندما تسربت أخبار قرار البارونات هذا إليهم وأُشعلت النيران، وبدأوا يرقصون ويغنون «فيما أمضوا الليل بطوله في الاحتفال والمرح». إلاَّ أنه يبدو أنّ قرار البارونات ومعنويات الجيش المرتفعة؛ كلُّ ذلك أغرق ريتشارد في المزيد من الكآبة. بات وضعه ضعيفاً وبدت معضلاته بعيدةً

جداً عن الانفراج في الوضع الحالي. وكما لو أن خيانته استوجبت عقاباً إلهياً ضربت فجأة جحافلٌ من الخنافس الكبيرة المتوحشة صفوف الجنود، وهجمت على المعسكر في موجاتٍ وخزت الرجال في وجوههم وسواعدهم حتى باتوا يشبهون المجذومين.

في الرابع من حزيران/ يونيو، انضم الطابور إلىٰ القوى الرئيسية في عسقلان. وفي اليوم التالي، حين كان ريتشارد يتجوّل في بستان خارج المدينة، التقى بقسيس بسيط من بواتييه كان ينظر إلىٰ الملك من بعيد والدموع تنهمر على وجنتيه:

«أيها القسيس، أرجوك، قل لي ما هي دواعي بكائك وبخاصةٍ إن كنتُ مسبّبها؟».

«لا أستطيع أن أتفوّه بكلمة قبل أن تؤكد لي جلالتكم أنكم لن تغضبوا مني»!

أعطى ريتشارد القسيس الأمان فأجابه: «يا مولاي، أبكي على السمعة السيئة التي تشوبكم وتشوب جيشكم بسبب نيتكم العودة إلىٰ بلادكم. فليمنع الله أن تؤدي بكم أخبار مشكوك في صحتها أتت من وراء البحار إلىٰ التخلي عن استعادة هذه الأراضي المدمّرة. إننا نعتقد بأن عملاً مماثلاً سيلصق بسمعتك العار إلىٰ الأبد. حولوا دون أن يقوّض انسحاب عجول متهوّر مجد عمل من أروع الأعمال. وامنع الناس من القول بأنّك عدت إلىٰ ديارك قبل إتمام مهمتك. وإن انتقصت من مجدك، لن تختلف النهاية عن البداية. حذار يا مولاي وإلاّ تلاشى مجدك الذي شقيت في بداياتك للوصول إليه وخاب في النهاية!».

توسّل القسيس البسيط إلى الملك أن يفكّر بكلّ ما وهبه الله من خصال القوة والعظمة، مقتبساً التعابير التي استخدمها بولس في رسالته الإنجيلية إلىٰ أهل إفسس: «على مقدار نعمته الوافرة التي أفاضها علينا» (1/ 13 ـ 14) وعدّد الانتصارات العديدة التي أحرزها ريتشارد: كان لا يزال لقبُهُ كونت أوف بواتو

عندما قَهَر أعداءَهم كلهم. وتمكّن من حكم مملكته من خلال انتصاراته على لوردات أقل منه قوةً وأصبح اسمه مصدراً للخوف في كل أنحاء أوروبا. كما أنه نجح في إخضاع مسينا وقهر الإغريق... وماذا عن قبرص وإمبراطورها. إن براعته في قيادة الجيوش أوقعت عكّا بين يديه وبقوّته تغلّب على مرض Arnaldia وانتصر في أرسوف والداروم وشرذم المسلمين وحرّر مئات المسيحيين.

«تذكر أنّك عندما قدمت إلىٰ هذه البلاد من العالم الغربي، أحرزت انتصارات في كل مكان وكبّلت أعداءك بالحديد». ثم قارن ريتشارد بأنتايوس Antaeus العملاق المذكور في الميثولوجيا الإغريقية الذي كان يزداد قوةً كلّما لمس الأرض. وشبّه المسلمين بهيدرا الذي كان يستبدل بالرأس الذي يقطعه ريتشارد رأسين: «إن السلطان الآن يرتعد لمجرّد ذكر اسمك أمامه. ضربت الدهشة شعب مصر والرهبة الوثنيين. هل أحتاج لأن أقول المزيد؟ أجمع الكل على أنك أبو النصرانية وبطلها والمدافع عنها. شتّان بين ما فعلتَه، وبين التخلي عنهم وتركهم ليواجهوا العدو فيقضي عليهم. أيها الملك، أعِن شعبك إذ إنه يعلّق آماله عليك. أنت حاميهم الطبيعي. فليساعدك المسيح على مواصلة التقدم».

في اليوم التالي، أرسل ريتشارد في طلب المنادي وأمره بأن يذيع في صفوف الجنود خبر عزمه البقاء حتى عيد الفصح القادم عندما تتم السيطرة على كل الأراضي المقدَّسة.

فلتبدأ الاستعدادات لحصار أورشليم.

ركع الجنود فور سماعهم أوامره شاكرين مصلّين: «أيها الرب، نعبدك ونحمدك لدخولنا قريباً مدينة أورشليم التي سيطر عليها الكفار لفترة طويلة جداً. إن توقعاتنا لمباركة حتى بعد هذا التأخير الطويل الأمد. ويا للفائدة التي عادت علينا بها آلامنا. إن النظر إلىٰ المدينة المقدَّسة سيعوّض علينا كل ما سبق!».